❁ ❁ ❁

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية، وقيل: مكية. قال الطبراني: حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد الخلال، حدثنا الوليد بن الوليد، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن». أورده ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن صالح»، وهو غريب جداً، بل منكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

هذه السورة هي آخر المُسبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وكقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب. ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حل بهم من العذاب والنكال؛ في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم، ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: عنهم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتُخبَرُنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم. وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه، ﷿، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية [سبأ: ٣]، والثالثة هي هذه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية. وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾: وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفُذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة. وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد. وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويُذهَب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾. وقد تقدم تفسير مثلُ هذه غير مرة.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وهكذا قال ها هنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وما أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقُرىء عنده هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، فسُئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يسترجع، يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول: سمعت عبادة بن الصامت يقول: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء، قضى لك به». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾: أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾، فالأول خبرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

وأخلصوا لديه، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفريابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ـ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى، عن الفريابي ـ وهو محمد بن يوسف ـ به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير والطبراني، من حديث إسرائيل، به. ورُوي من طريق العوفي، عن ابن عباس، نحوه، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء. وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾: يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلقه. ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ والتي بعدها [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حُسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بُرَيْدَة، سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين، رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». ورواه أهل السنن من حديث حُسين بن واقد، به. وقال الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مجالد، عن الشعبي، حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقال لي: «هل لك من ولد؟» قلت: غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة جمد، ولوددت أن بمكانه: شبع القوم. قال: «لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجراً إذا قبضوا»، ثم قال: «ولئن قلت ذاك: إنهم لمجبنة محزنة إنهم لمجبنة محزنة» تفرد به أحمد، رحمه الله تعالى. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر، حدثنا أبي، عن عيسى بن أبي وائل، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة» ثم قال: لا يعرف إلا بهذا الإسناد. وقال الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنا أبي، حدثني ضَمْضَمُ بنُ زُرْعَة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك مالُك الذي ملكت يمينك». وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جهدكم وطاقتكم. كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقد قال بعض المفسرين ـ كما رواه مالك، عن زيد بن أسلم ـ إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي في «آل عمران» وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء ـ هو ابن دينار ـ عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فنسخت الآية الأولى. وروي عن أبي العالية، وزيد بن أسلم، وقتادة، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، ومُقاتل بن حيَّان، نحو ذلك. وقوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي: كونوا منقادين لما

يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرّاً لكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تقدم تفسيره في سورة «الحشر» وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته ها هنا، ولله الحمد والمنة، وقوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاءه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم». ولهذا قال: ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾: تقدم تفسيره غير مرة.

* * *

(٦٤) سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسبح لله ما فى السموات ومافى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ﴾ وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين، وأيضاً تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سراً وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم، وهو قوله تعالى (يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) وأما الأول بالآخر فلأن فى آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر، وفى أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر، قلنا من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائما، وهم الذين يسبحون، كما قال تعالى (يسبح لله ما فى السموات فى الأرض)، وقوله تعالى (له الملك وله الحمد) معناه إذا سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض فله الملك وله الحمد، ولما كان له الملك فهو متصرف فى ملكه والتصرف مفتقر إلى القدرة فقال (والله على كل شىء قدير) وقال فى الكشاف قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك فى الحقيقة له لأنه مبدىء لكل شىء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، كذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، وقوله تعالى (وهو على كل شىء قدير) قيل معناه وهو على كل شىء أراده قدير، وقيل قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه ولا ينقص. وقد مر ذلك، وفى الآية مباحث:

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى قال فى الحديد (سبح) والحشر والصف كذلك، وفى الجمعة والتغابن (يسبح لله) فما الحكمة فيه؟ نقول الجواب عنه قد تقدم.

﴿ البحث الثانى ﴾ قال فى موضع (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) وفى موضع

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾

آخر (سبح لله ما فى السموات والأرض) فما الحكمة فيه ؟ قلنا الحكمة لابد منها ، ولا نعلمها كما هي ، لكن نقول ما يخطر بالبال ، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد ، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية ، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقى منه شيء آخر ، فقوله تعالى (يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض) بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال ، قال تعالى فى بعض السور كذا وفى البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسمانى من وجه شيء واحد ، ومن وجه شيئان بل أشياء كثيرة ، والخلق فى المجموع غير ما فى هذا الجزء ، وغير ما فى ذلك أيضاً ولا يلزم من وجود الشيء فى المجموع أن يوجد فى كل جزء من أجزائه إلا بدليل منفصل ، فقوله تعالى (سبح لله مافى السموات وما فى الأرض) على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما أنه يدل على تسبيح ما فى السموات وعلى تسبيح مافى الأرض ، كذلك بخلاف قوله تعالى (سبح لله مافى السموات والأرض) .

ثم قال تعالى ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ، خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدر ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه تعالى خلق بنى آدم مؤمناً وكافراً ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً ، وقال عطاء إنه يريد فمنكم مصدق ، ومنكم جاحد ، وقال الضحاك مؤمن فى العلانية كافر فى السر كالمنافق ، وكافر فى العلانية مؤمن فى السر كعمار بن ياسر ، قال الله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وقال الزجاج فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه ، وهو من أهل الطبائع والدهرية ، ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال (قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه) وقال (أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة) وقال أبو إسحاق : خلقكم فى بطون أمهاتكم كفاراً ومؤمنين ، وجاء فى بعض التفاسير أن يحيى خلق فى بطن أمه مؤمناً وفرعون خلق فى بطن أمه كافراً ، دل عليه قوله تعالى (إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) وقوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أى عالم بكفركم

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

وإيمانكم اللذين من أعمالكم ، والمعنى أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التى هى الخلق فانظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين ، فما فعلتم مع تمكنكم بل تفرقتم فرقاً فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) أى بالإرادة القديمة على وفق الحكمة ، ومنهم من قال بالحق ، أى للحق ، وهو البعث ، وقوله (وصوركم فأحسن صوركم) يحتمل وجهين (أحدهما) أحسن أى أتقن وأحكم على وجه لا يوجد بذلك الوجه فى الغير ، وكيف يوجد وقد وجد فى أنفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة (وثانيهما) أن نصرف الحسن إلى حسن المنظر ، فإن من نظر فى قد الإنسان وقامته وبالنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة وقوله تعالى (وإليه المصير) أى البعث وإنما أضافه إلى نفسه لأنه هو النهاية فى خلقهم والمقصود منه ، ثم قال تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) لأنه لايلزم من خلق الشىء أن يكون مصوراً بالصورة ، ولايلزم من الصورة أن تكون على أحسن الصور ، ثم قال (وإليه المصير) أى المرجع ليس إلا له ، وقوله تعالى (يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ماتسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) نبه بعلمه مافى السموات والأرض ، ثم بعلمه مايسره العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه مافى الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لايخفى عليه شىء لما أنه تعالى لايعزب عن علمه مثقال ذرة البتة أزلا وأبداً ، وفى الآية مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى حكيم ، وقد سبق فى علمه أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ، والإصرار عليه فأى حكمة دعته إلى خلقهم ؟ نقول إذا علمنا أنه تعالى حكيم ، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة ، وخلق هذه الطائفة فعله ، فيكون على وفق الحكمة ، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لايكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة .

﴿ الثانى ﴾ قال (وصوركم فأحسن صوركم) وقد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الخلقة ؟ نقول : لاسماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بيناً لا يظهر حسنه ، وإلا فهو داخل فى حيز الحسن غير خارج عن حده .

﴿ الثالث ﴾ قوله تعالى (وإليه المصير) يوهم الانتقال من جانب إلى جانب ، وذلك لا يمكن إلا أن يكون الله فى جانب ، فكيف هو ؟ قلت ذلك الوهم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون فى نفس الأمر ، فإن نفس الأمر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب إلى جانب إذا كان المنتقل إليه منزهاً عن الجانب وعن الجهة .

ثم قال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ، زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾

اعلم أن قوله (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا) خطاب لكفار مكة وذلك إشارة إلى الويل الذى ذاقوه فى الدنيا وإلى ما أعد لهم من العذاب فى الآخرة . فقوله (فذاقوا وبال أمرهم) أى شدة أمرهم مثل قوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وقوله (ذلك بأنه) أى بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشراً . ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً فكفروا وتولوا ، وكفروا بالرسل وأعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل ، وقوله تعالى (والله غنى حميد) من جملة ما سبق ، والحميد بمعنى المحمود أى المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد ، وقوله تعالى (زعم الذين كفروا) قال فى الكشاف : الزعم ادعاء العلم ، ومنه قوله ﷺ « زعموا مطية الكذب » وعن شريح لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا ، ويتعدى إلى مفعولين ، تعدى العلم ، قال الشاعر ولم أزعمك عن ذلك معزولا

والذين كفروا هم أهل مكة (بلى) إثبات لما بعد أن وهو البعث وقيل قوله تعالى (قل بلى وربى) يحتمل أن يكون تعليما للرسول ﷺ ، أى يعلمه القسم تأكيداً لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم فى القرآن وقوله تعالى (وذلك على الله يسير) أى لا يصرفه صارف ، وقيل إن أمر البعث على الله يسير ، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً ، فأخبر أن إعادتهم أهون فى العقول من إنشائهم ، وفى الآية مباحث :

﴿ الأول ﴾ قوله (فكفروا) يتضمن قوله (وتولوا) فما الحاجة إلى ذكره ؟ نقول إنهم كفروا وقالوا (أبشر يهدوننا) وهذا فى معنى الإنكار والإعراض بالكلية ، وذلك هو التولى ، فكأنهم كفروا وقالوا قولا يدل على التولى ، ولهذا قال (فكفروا وتولوا) .

﴿ الثانى ﴾ قوله (وتولوا واستغنى الله) يوهم وجود التولى والاستغناء معاً ، والله تعالى لم يزل غنياً ، قال فى الكشاف معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك .

﴿ الثالث ﴾ كيف يفيد القسم فى إخباره عن البعث وهم قد أنكروا رسالته . نقول إنهم

فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

وإن أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقاداً لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفى اعتقاده ، والفائدة فى الإخبار مع القسم ليس إلا هذا ، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم .

ولما بالغ فى الإخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الايمان قال :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ، يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ .

قوله (فآمنوا) يجوز أن يكون صلة لما تقدم لأنه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالأمم الماضية ، وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال (فآمنوا) أنتم (بالله ورسوله) لئلا ينزل بكم مانزل بهم من العقوبة (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن فإنه يهتدى به فى الشبهات كما يهتدى بالنور فى الظلمات ، وإنما ذكر النور الذى هو القرآن لما أنه مشتمل على الدلالات الظاهرة على البعث ، ثم ذكر فى الكشاف أنه عنى برسوله والنور محمداً ﷺ والقرآن (والله بماتعملون خبير) أى بما تسرون وماتعلنون فراقبوه وخافوه فى الحالين جميعاً وقوله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) يريد به يوم القيامة جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض ، و (ذلك يوم التغابن) والتغابن تفاعل من الغبن فى المجازاة والتجارات ، يقال غبنه يغبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن قوماً فى النار يعذبون وقوماً فى الجنة يتنعمون ، وقيل هو يوم يغبن فيه أهل الحق ، أهل الباطل ، وأهل الهدى أهل الضلالة ، وأهل الإيمان . أهل الكفر ، فلا غبن أبين من هذا ، وفى الجملة فالغبن فى البيع والشراء وقد ذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى ، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة ، فقال (هل أدلكم على تجارة) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين ، وقوله تعالى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً) يؤمن بالله على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك ، ويعمل صالحاً أى يعمل فى إيمانه صالحاً إلى أن يموت ، قرىء يجمعكم ويكفر ويدخل بالياء والنون ، وقوله (والذين كفروا) أى بوحدانية الله تعالى وبقدرته (وكذبوا بآياتنا) أى بآياته الدالة على البعث (أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ، ثم فى الآية مباحث :

﴿ الأول ﴾ قال (فآمنوا بالله ورسوله) بطريق الإضافة ، ولم يقل ونوره الذى أنزلنا بطريق الإضافة مع أن النور ههنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف إليه ؟ نقول الألف واللام فى النور بمعنى الإضافة كأنه قال ورسوله ونوره الذى أنزلنا .

﴿ الثانى ﴾ بم انتصب الظرف ؟ نقول : قال الزجاج بقوله (لتبعثن) وفى الكشاف بقوله (لتنبؤن) أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل والله معاقبكم يوم يجمعكم أو باضمار اذكر .

﴿ الثالث ﴾ قال تعالى فى الإيمان (ومن يؤمن بالله) بلفظ المستقبل ، وفى الكفر وقال (والذين كفروا) بلفظ الماضى ، فنقول : تقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار .

﴿ الرابع ﴾ قال تعالى (ومن يؤمن) بلفظ الواحد و(خالدين فيها) بلفظ الجمع ، نقول : ذلك بحسب اللفظ ، وهذا بحسب المعنى .

﴿ الخامس ﴾ ما الحكمة فى قوله (وبئس المصير) بعد قوله (خالدين فيها) وذلك بئس المصير فنقول : ذلك وإن كان فى معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده .

ثم قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ، الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ :

قوله تعالى (إلا بإذن الله) أى بأمر الله قاله الحسن ، وقيل بتقدير الله وقضائه ، وقيل بإرادة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن
تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟

الله تعالى ومشيئته ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما بعلمه وقضائه وقوله تعالى (يهد قلبه) أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط ، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع ، فذلك قوله (يهد قلبه) أى للتسليم لأمر الله ، ونظيره قوله (الذين إذا أصابتهم مصيبة) إلى قوله (أولئك هم المهتدون) ، قال أهل المعانى يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرىء (نهد قلبه) بالنون وعن عكرمة (يهد قلبه) بفتح الدال وضم الياء ، وقرىء (يهدأ) قال الزجاج هدأ قلبه يهدأ إذا سكن ، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه (والله بكل شىء عليم) يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة ، وقيل (عليم) بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما جاء به من عند الله يعنى هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى ، ومن الرسول فيما دعاكم إليه .

وقوله ﴿ فإن توليتم ﴾ أى عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه (فما على الرسول إلا البلاغ) الظاهر والبيان البائن ، وقوله (الله لا إله إلا هو) يحتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) فإن من كان موصوفاً بهذه الصفات ونحوها (فهو الذى لا إله إلا هو) أى لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل فى كل باب ، وإليه المرجع والمآب ، وقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بيان أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس إلا هو ، وقال فى الكشاف هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، فإن قيل كيف يتعلق (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) بما قبله ويتصل به ؟ نقول يتعلق بقوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله) لما أن من يؤمن بالله فيصدقه يعلم ألا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ،

وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ قال الكلبي كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته . فقالوا أنت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع أهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم ، ومنهم من لا يطيع ويقول أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفعكم شيئاً أبداً ، فلما جمع الله بينهم أمرهم أن ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا ، وقال مسلم الخراساني ، نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ، فقال هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله (عدواً لكم فاحذروهم) أن تطيعوا وتدعوا الهجرة ، وقوله تعالى (وإن تعفوا وتصفحوا) قال هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا في الدين هم أن يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة . وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ، ولم يصبهم بخير فنزل (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا) الآية ، يعني أن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، ينهون عن الإسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم ، فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان ، ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدواً لهم ، وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لا تطيعوهم في معصية الله تعالى وفتنة أي بلاء وشغل عن الآخرة ، وقيل أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله ، كغصب مال الغير وغيره (والله عنده أجر عظيم) أي جزيل ، وهو الجنة أخبر أن عنده أجراً عظيما . ليتحملوا المؤونة العظيمة ، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم . وقوله تعالى (اتقوا الله ما استطعتم) قال مقاتل أي ما أطقتم يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع ، قال قتادة نسخت هذه الآية ، قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ومنهم من طعن فيه وقال لا يصح لأن قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والاستطاعة ، وقوله (اسمعوا) أي لله ولرسوله ولكتابه وقيل لما أمركم الله ورسوله به (وأطيعوا الله) فيما يأمركم (وأنفقوا) من أموالكم في حق الله خيراً لأنفسكم ، والنصب بقوله (وأنفقوا) كأنه قيل وقدموا خيراً لأنفسكم ، وهو

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

كقوله (فآمنوا خيراً لكم) وقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه) الشح هو البخل ، وإنه يعم المال وغيره ، يقال فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف ، وقيل يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم ، ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح فإن قيل إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، يدل على أن الأموال والأولاد كلها من الأعداء (وإن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) يدل على أن بعضهم من الأعداء دون البعض ، فنقول هذا فى حيز المنع فإنه لا يلزم أن يكون البعض من المجموع الذى مرذكره من الأولاد يعنى من الأولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع ، فيكون البعض منهم عدواً دون البعض .

قوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ .

اعلم أن قوله (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) أى إن تنفقوا فى طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه (شكور) يحب المتقربين إلى حضرته (حليم) لا يعجل بالعقوبة (غفور) يغفر لكم ، والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال ، وقيل هو التصدق بطيبة نفسه ، والقرض هو الذى يرجى مثله وهو الثواب مثل الانفاق فى سبيل الله ، وقال فى الكشاف ذكر القرض تلطف فى الاستدعاء وقوله (يضاعفه لكم) أى يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة إلى ما شاء من الزيادة وقرىء يضعفه (شكور) مجاز أى يفعل بكم ما يفعل المبالغ فى الشكر من عظيم الثواب وكذلك (حليم) يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسىء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم ، ثم لقائل أن يقول هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة ، والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال عالم الغيب ، فنقول قوله (العزيز) يدل على القدرة من عز إذا غلب (والحكيم) على الحكمة ، وقيل العزيز الذى لا يعجزه شىء ، والحكيم الذى لا يلحقه الخطأ فى التدبير ، والله تعالى كذلك فيكون عالماً قادراً حكيما جل ثناؤه وعظم كبرياؤه ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيراً .

٦٤ ــ سورة التغابن

(مدنية وهى ثمانى عشرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ٦٤ التغابن

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ٦٤ التغابن

خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ٦٤ التغابن

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ٦٤ التغابن

﴿ سورة التغابن مدنية مختلف فيها وآياتها ثمانى عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض) أى ينزهه سبحانه جميع مافيهما
* من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيهاً مستمراً (له الملك وله الحمد) لا لغيره إذ هو المبدىء لكل
شىء وهو القائم به والمهيمن عليه وهو المولى لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره فاسترعاء من جنابه
* وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده (وهو على كل شىء قدير) لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة
٢ إلى الكل سواء (هو الذى خلقكم) خلقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادى الكمالات العلمية والعملية ومع ذلك
* (فمنكم كافر) أى فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته (ومنكم
مؤمن) مختار للإيمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين
للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم
منه بل تشعبتم شعباً وتفرقتم فرقاً وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم والأنسب بمقام التوبيخ وحمله
على معنى فمنكم كافر مقدرة كفره موجه إليه مايحمله عليه ومنكم مؤمن مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه
* بما لا يلائم المقام (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة
٣ وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان (خلق السموات والأرض بالحق) بالحكمة البالغة المتضمنة
* للمصالح الدينية والدنيوية (وصوركم فأحسن صوركم) حيث براكم فى أحسن تقويم وأودع فيكم
من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط بها من الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات
* مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة (وإليه المصير)
فى النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر
٤ فيما خلقن له (يعلم ما فى السموات والأرض) من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ٦٤ التغابن

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ٦٤ التغابن

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ٦٤ التغابن

(ويعلم ماتسرون وما تعلنون) أى ماتسرونه فيما بينكم وماتظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه
فيما قبله لأنه الذى يدور عليه الجزاء ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى (والله عليم
بذات الصدور) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم أى هو محيط بجميع
المضمرات المستكنة فى صدور الناس بحيث لاتفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرونه وما يعلنونه
وإظهار الجلالة للإشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة قيل وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم
لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء
٥ (ألم يأتكم) أيها الكفرة (نبأ الذين كفروا من قبل) كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم المصرة على الكفر
(فذاقوا وبال أمرهم) عطف على كفروا والوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور وأمرهم
كفرهم عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة أى ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل
٦ فذاقوا من غير مهلة مايستتبعه كفرهم فى الدنيا (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) لايقادر قدره (ذلك)
أى ماذكر من العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا وما سيذوقونه فى الآخرة (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت
تأتيهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات الظاهرة (فقالوا) عطف على كانت (أبشر يهدوننا) أى قال
كل قوم من المذكورين فى حق رسولهم الذى أتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر
متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود أبشراً منا واحداً نتبعه وقد أجمل فى الحكاية فأسند القول
إلى جميع الأقوام وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما أجمل الخطاب والأمر فى قوله تعالى يا أيها
الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً (فكفروا) أى بالرسل (وتولوا) عن التدبر فيما أتوا به من
البينات وعن الإيمان بهم (واستغنى الله) أى أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم حيث أهلكهم وقطع
دابرهم ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك (والله غنى) عن العالمين فضلا عن إيمانهم وطاعتهم (حميد)
٧ يحمده كل مخلوق بلسان الحال أو مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد (زعم الذين كفروا أن لن
يبعثوا) الزعم ادعاء العلم يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن المخففة مع مافى حيزها والمراد بالموصول
كفار مكة أى زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبداً (قل) رداً عليهم وإبطالا لزعمهم بإثبات مانفوه
(بلى) أى تبعثون وقوله (وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) أى لتحاسبن ولتجزون بأعمالكم جملة

فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ٦٤ التغابن
يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ
وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ٦٤ التغابن
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ٦٤ التغابن
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٦٤ التغابن

مستقلة داخلة تحت الأمر واردة لتأكيد ما أفاده كلمة بلى من إثبات البعث وبيان تحقق أمر آخر متفرع
عليه منوط به ففيه تأكيد لتحقق البعث بوجهين (وذلك) أى ماذكر من البعث والجزاء (على الله *
٨ يسير) لتحقق القدرة التامة وقبول المادة والفاء فى قوله تعالى (فآمنوا) فصيحة مفصحة عن شرط
قد حذف ثقة بغاية ظهوره أى إذا كان الأمر كذلك فآمنوا (بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم *
(والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن فإنه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك والالتفات *
إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال (والله بما تعملون) من الامتثال بالأمر وعدمه (خبير) *
فمجاز لكم عليه والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الأمر موجب للامتثال به بالوعد والوعيد
٩ والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (يوم يجمعكم) ظرف لتنبؤن وقيل
لخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله مجازيكم ومعاقبتكم يوم يجمعكم أو مفعول لاذكر وقرىء
نجمعكم بنون العظمة (ليوم الجمع) ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون أى لأجل مافيه من الحساب *
والجزاء (ذلك يوم التغابن) أى يوم غبن بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لوكانوا *
سعداء وبالعكس وفى الحديث مامن عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً
وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة وتخصيص التغابن بذلك
اليوم للإيذان بأن التغابن فى الحقيقة هو الذى يقع فيه لا ما يقع فى أمور الدنيا (ومن يؤمن بالله *
ويعمل صالحاً) أى عملا صالحاً (يكفر) أى الله عز وجل وقرىء بنون العظمة (عنه سيئاته) يوم *
القيامة (ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) وقرىء ندخله بنون (ذلك) أى *
أى ماذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات (الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه لانطوائه على النجاة *
١٠ من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين
١١ فيها وبئس المصير) أى النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن (ما أصاب من مصيبة)
من المصائب الدنيوية (إلا بإذن الله) أى بتقديره وإرادته كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة *
على إذنه تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) عند إصابتها للثبات والاسترجاع وقيل يهد قلبه حتى يعلم *

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٦٤ التغابن

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ٦٤ التغابن

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ٦٤ التغابن

أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وقيل يهد قلبه أى يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير وقرىء يهدقلبه على البناء للمفعول ورفع قلبه وقرىء بنصبه على نهج سفه نفسه وقرىء يهدأ قلبه بالهمزة أى يسكن (والله بكل شىء) من الأشياء التى من جملتها القلوب وأحوالها (عليم)
١٢ فيعلم إيمان المؤمن ويهدى قلبه إلى ماذكر (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كرر الأمر لتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين فى الكيفية وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى (فإن توليتم) أى عن إطاعة الرسول وقوله تعالى (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) تعليل للجواب المحذوف أى فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وإظهار الرسول مضافا إلى نون العظمة فى مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام
١٣ محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه (الله لا إله إلا هو) جملة من مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غيره وفى إضمار خبر لا مثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف (وعلى الله) أى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا (فليتوكل المؤمنون) وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار للإشعار بعلة التوكل والأمر به فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية وقطع
١٤ التعلق عما سواه بالمرة (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) يشغلونكم عن طاعة الله تعالى أو يخاصمونكم فى أمور الدين أو الدنيا (فاحذروهم) الضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى فإنهم عدو لى أو للأزواج والأولاد جميعاً فالمأمور به على الأول الحذر عن الكل وعلى الثانى إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو (وإن تعفوا) عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة (وتصفحوا) بترك التثريب والتعيير (وتغفروا) بإخفائها وتمهيد عذرها (فإن الله غفور رحيم) يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم وقيل إن ناساً من المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا تنطلقوا وتضيعو تنافرقوا لهم ووقفوا فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأولين قد فقهوا فى الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو وقيل قالوا لهم أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم وقالوا لئن جمعنا الله فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا ومنعوهم الخير حثوا على أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة .

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ٦٤ التغابن

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ٦٤ التغابن

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ٦٤ التغابن

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ٦٤ التغابن

١٥ (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) بلاء ومحنة يوقعونكم فى الاثم من حيث لاتحتسبون (والله عنده أجر
١٦ عظيم) لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعى فى تدبير مصالحهم (فاتقوا
* الله مااستطعتم) أى أبذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم (واسمعوا) مواعظه (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا)
* مما رزقكم فى الوجوه التى أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه (خيراً لأنفسكم) أى ائتوا خيراً لأنفسكم
وافعلوا ماهو خير لها وأنفع وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لكون الأمور المذكورة
خيراً لأنفسهم ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أى إنفاقا خيراً أو خبراً لكان مقدراً جواباً
* للأوامر أى يكن خيراً لأنفسكم (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مرام
١٧ (إن تقرضوا الله) بصرف أموالكم إلى المصارف التى عينها (قرضاً حسناً) مقروناً بالإخلاص
* وطيب النفس (يضاعفه لكم) بالواحد عشرة إلى سبعمائة وأكثر وقرىء يضعفه لكم (ويغفر لكم)
* ببركة الإنفاق مافرط منكم من بعض الذنوب (والله شكور) يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل (حليم)
١٨ لايعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم (عالم الغيب والشهادة) لايخفى عليه خافية (العزيز الحكيم) المبالغ
فى القدرة والحكمة. عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة.

﴿ سورة التغابن — ٦٤ ﴾

مدنية فى قول الاكثرين ، وعن ابن عباس . وعطاء بن يسار أنها مكية إلا آيات من آخرها (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الخ ، وعدد آيها تسع عشرة آية بلا خلاف ، ومناسبتها لماقبلها أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المؤمنين ، وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن . وكافر ، وأيضاً فى آخر تلك (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم)وفى هذه (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)وهذه الجملة على ماقيل : كالتعليل لتلك ، وأيضاً فى ذكر التغابن نوع حث على الانفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل ، واستنبط بعضهم عمر النبي ﷺ ثلاثا وستين من قوله تعالى فى تلك السورة : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فانها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها سبحانه بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده عليه الصلاة والسلام *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تسبيحاً مستمراً ، وذلك بدلالتها على كماله عز وجل واستغنائه تعالى ، والتجدد باعتبار تجدد النظر فى وجوه الدلالة على ذلك ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ لا لغيره تعالى إذ هو جل شأنه المبدئ لكل شئ وهو القائم به والمهيمن عليه وهو عز وجل المولى لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه تعالى وتسليط ، وأما حمد غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده فكلا الامرين له تعالى فى الحقيقة ولغيره بحسب الصورة ، وتقديم (له الملك) لأنه كالدليل لما بعده ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ لأن نسبة ذاته جل شأنه المقتضية للقدرة إلى الكل سواء فلا يتصور كون بعض مقدوراً دون بعض ، وقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ الخ بيان لبعض قدرته تعالى العامة ، والمراد هو الذى أوجدكم كما شاء وقوله تعالى :

﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ أى فبعضكم كافر به تعالى وبعضكم مؤمن به عز وجل ، أو فبعض منكم كافر به سبحانه وبعض منكم مؤمن به تعالى تفصيل لما فى (خلقكم) من الإجمال لأن كون بعضهم . أو بعض منهم كافراً ، وكون بعضهم . أو بعض منهم مؤمناً مرادمنه فالفاء مثلها فى قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه) الخ فيكون الكفر والايمان فى ضمن الخلق وهو الذى تؤيده الاخبار الصحيحة كخبر البخارى . ومسلم . والترمذى . وأبى داود عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ وهو الصادق المصدوق ـ « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه ملكا بأربع كلمات : يكتب رزقه . وأجله . وعمله . وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح الحديث » وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مكث المنى فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب فيقول : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله ماهو قاض فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ماهو لاق » *

وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله تعالى : (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) والجمع بين الخبرين مما لا يخفى على من أوتى نصيباً من العلم ، وتقديم الكفر لأنه الأغلب *

واختار بعضهم كون المعنى هو الذى خلقكم خلقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادى الكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تستدعيه خلقته ، ومنكم مختار للايمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والايجاد وما يتفرع عليهما من سائر النعم ، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعباً وتفرقتم فرقاً ، وهو الذى ذهب اليه الزمخشرى ، بيد أنه فسر الكافر بالآتى بالكفر والفاعل له . والمؤمن بالآتى بالايمان والفاعل له لأنه الأوفق بمذهبه من أن العبد خالق لأفعاله ، وأن الآية لبيان إخلالهم بما يقتضيه التفضل عليهم بأصل النعم الذى هو الخلق والإيجاد من النعم، وأن الآيات بعد فى معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته .
ثم قال : فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته ، والخلق أعظم نعمة من الله تعالى على عباده ، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم سبحانه ، وجعل الطيبي الفاء على هذا للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة كاللام فى قوله تعالى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وهى كالفاء فى قوله تعالى : (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) ولم يجعلها للتفصيل كما قيل *

واختار فى الآية المعنى السابق مؤيداً له بالأحاديث الصحيحة، وبأن السياق عليه مدعياً أن الآيات كلها واردة لبيان عظمة الله تعالى فى ملكه وملكوته واستبداده فيهما، وفى شمول علمه تعالى كلها وفى إنشائه تعالى المكونات ذواتها وأعراضها ، ووافقه فى اختيار ذلك تلميذه المدقق صاحب الكشف ، واعترض قول الزمخشرى : فما أجهل الخ بقوله فيه مامر مراراً كأنه يعنى مخالفة النصوص فى عدم كون الكفر مخلوقا كغيره على أن خلق الكفر أيضاً من النعم العظام فلولا خلقه وتبيين ما فيه من المضار ماظهر مقدار الانعام بالايمان وما فيه من المنافع ، ثم إن كونه كفراً باعتبار قيامه بالعبد ومنه جاء القبح لا باعتبار كونه خلقه تعالى على ماحقق فى موضعه، ثم قال : ومنه يظهر أن تكلفه فى قوله تعالى : (فمنكم) الخ ليخرجه عن تفصيل المجمل فى (خلقكم) تحريف لكتاب الله تعالى انتهى *

ويرجح التفصيل عندى فى الجملة قوله تعالى : (كافر . ومؤمن) دون من يكفر ومن يؤمن ، نعم عدم دخول الكفر والايمان فى الخلق أوفق بقوله تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » والانصاف أن الآية تحتمل كلا من المعنيين: المعنى الذى ذكر أولا . والمعنى الذى اختاره البعض ، والسياق يحتمل أن يحمل على ما يناسب كلا وليس نصا فى أحد الأمرين اللذين سمعتهما حتى قيل : إن الآيات واردة لبيان مايتوقف عليه الوعد والوعيد بعد من القدرة التامة والعلم المحيط بالنشأتين ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ ﴾ أى فيجازيكم بما يناسب ذلك لا ينافى خلق الكفر والايمان لأنهما مكسوبان للعبد ، وخلق الله تعالى إياهما لا ينافى كونهما مكسوبين للعبد كما بين فى الكلام على قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) لكن أكثر الأحاديث تؤيد المعنى الأول ، وكأنى بك تختار الثانى لأن كون المقام للتوبيخ على الكفر أظهر وهو أوفق به ، وعن عطاء بن أبى رباح (فمنكم كافر) أى بالله تعالى مؤمن بالكوكب (ومنكم مؤمن) بالله تعالى كافر بالكوكب ، وقيل : (فمنكم كافر) بالخلق وهم الدهرية (ومنكم مؤمن) به ، وعن الحسن أن فى الكلام حذفا والتقدير ومنكم فاسق ، ولا أراه يصح ، وكأنه من كذب المعتزلة عليه ، والجملة ـ على ما استظهر بعض الأفاضل ـ معطوفة على الصلة ، ولا يضره عدم العائد لأن

المعطوف بالفاء يكفيه (١) وجود العائد فى إحدى الجملتين كما قرروه فى نحو الذى يطير فيغضب زيد الذباب ، أو يقال : فيها رابط بالتأويل أى فمنكم من قدر كفره ومنكم من قدر إيمانه ، أو (فمنكم كافر) به (ومنكم مؤمن) به ، ويقدر الحذف تدريجاً ، وجوز أن يكون العطف على جملة (هو الذى خلقكم) *

﴿ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، قيل : وأصل الحق مقابل الباطل فأريد به الغرض الصحيح الواقع على أتم الوجوه وهو الحكمة العظيمة *

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ حيث برأكم سبحانه فى أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة مانيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ، وقد ذكر بعض المحققين أن الانسان جامع بين العالم العلوى والسفلى ، وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات وبدنه الذى هو من عالم الماديات وأنشدوا :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعمرى أن الانسان أعجب نسخة فى هذا العالم قد اشتملت على دقائق أسرار شهدت ببعضها الآثار وعلم ماعلم منها ذوو الأبصار ، وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين كما هو المعروف ، وكل مايشاهد من الصور الانسانية حسن لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب فلانحطاط بعضها عن مراتب مافوقها انحطاطاً بيناً وإضافتها إلى الموفى عليها لاتستملح وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة من حده ، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى فى مراتب الحسن فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر اليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها ، وقالت الحكماء : شيآن لاغاية لهما : الجمال . والبيان *

وقرأ زيد بن على . وأبو رزين (صوركم) بكسر الصاد والقياس الضم كما فى قراءة الجمهور *

﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣ ﴾ فى النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكاً فاصرفوا ماخلق لكم فيما خلق له لئلا يمسخ مايشاهد من حسنكم بالعذاب ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ﴿ وَيَعْلَمُ مَاتُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى ماتسرونه فيما بينكم وماتظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله للاعتناء بشأنه لأنه الذى يدور عليه الجزاء ، وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤ ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم أى هو عز وجل محيط بجميع المضمرات المستكنة فى صدور الناس بحيث لاتفارقها أصلا فكيف يخفى عليه تعالى مايسرونه وما يعلنونه ، وإظهار الجلالة للاشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة ، قيل : وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته تعالى بالذات وعلى علمه سبحانه لما فيها من الاتقان والاختصاص ببعض الأنحاء *

---

(١) المصرح به أن ذلك فيما إذا كانت الفاء للسببية فلا تغفل اه منه

وقرأ عبيد عن أبى عمرو . وأبان عن عاصم - مايسرون ومايعلنون - بياء الغيبة ﴿ أَلَمْ يَأْتِـكُمْ ﴾ أى أيها الـكفرة لدلالة مابعد على تخصيص الخطاب بهم ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن المراد بهم أهل مكة فـكأنه قيل : ألم يأتـكم يا أهل مكة ﴿ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح . وهود . وصالح . وغيرهم من الأمم المصرة على الـكفر ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى ضرر كفرهم فى الدنيا من غير مهلة ، وأصل الوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة ، والوابل للمطر الثقيل القطار ، واستعمل للضرر لأنه يثقل على الانسان ثقلا معنوياً ، وعبر عن كفرهم بالأمر للايذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ ﴾ لايقادر قدره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا وما سيذوقونه فى الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أى بسبب أن الشأن *

﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ ﴾ بالمعجزات الظاهرة ﴿ فَقَالُوا ﴾ عطف على (كانت) * ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أى قال كل قوم من أولئك الأقوام الذين كفروا فى حق رسولهم الذى أتاهم بالمعجزات منكرين لـكون الرسول من جنس البشر ، أو متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود : (أبشراً منا واحداً نتبعه) ، وقد أجمل فى الحـكاية فأسند القول إلى جميع الأقوام ، وأريد بالبشر الجنس ، فوصف بالجمع كما أجمل الخطاب ، والأمر فى قوله تعالى : (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وارتفاع (بشر) على الابتداء ، وجملة (يهدوننا) هو الخبر عند الحوفى . وابن عطية ، والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية بفعل محذوف يفسره المذكور لأن همزة الاستفهام أميل إلى الفعل والمادة من باب الاشتغال ﴿ فَـكَفَرُوا ﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن التأمل فيما أتوا به من البينات ، وعن الإيمان بهم ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث أهلـكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه عز وجل عنهما لما فعل ذلك ، والجملة عطف على ماقبلها ، وقيل : فى موضع الحال على أن المعنى (فـكفروا وتولوا) وقد استغنى الله تعالى عن كل شىء ، والأول هو الوجه ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين فضلا عن إيمانهم وطاعتهم ﴿ حَمِيدٌ ٦ ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال الذى هو أفصح من لسان المقال ، أو مستحق جل شأنه للحمد بذاته وإن لم يحمده سبحانه حامد ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ﴾ الزعم ادعاء العلم ، وأكثر مايستعمل للادعاء الباطل *

وعن ابن عمر . وابن شريح إنه كنية الـكذب ، واشتهر أنه مطية الـكذب ، ولما فيه من معنى العلم يتعدى إلى مفعولين ، وقد قام مقامهما هنا (أن) المخففة وما فى حيزها ، والمراد بالموصول على ما فى الـكشاف أهل مكة فهو على ماسمعت فى الخطاب من إقامة الظاهر مقام المضمر ، ويؤيده ظاهراً قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قال فى الـكشف : ويحتمل التعميم فيتناولهم وأضرابهم لتقدم كفار مكة فى الذكر وغيرهم ممن حملوا على الاعتبار بحالهم ، وهذا أبلغ أى زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم (قل) رداً عليهم وإظهاراً لبطلان زعمهم باثبات مانفوه بلى تبعثون ، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهى داخلة

فى حيز الأمر، وكذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أى لتحاسبن وتجزون بأعمالكم ، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضاً تأكيد له ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أى ما ذكر من البعث والجزاء ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧ ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا ﴾ مفصحة بشرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره أى إذا كان الأمر كذلك (فآمنوا) ﴿ بِاللَّهِ ﴾ الذى سمعتم ما سمعتم من شئونه عز وجل ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، فانه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة لابراز العناية بأمر الانزال ، وفى ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال بالأمر وتركه ﴿ خَبِيرٌ ٨ ﴾ عالم بباطنه ☼

والمراد كمال علمه تعالى بذلك ، وقيل : عالم بأخباره ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف (لتنبؤن) وقوله تعالى : (وذلك على الله يسير) وقوله سبحانه : (فآمنوا) إلى (خبير) من الاعتراض ، فالأول يحقق القدرة على البعث ، والثانى يؤكد ما سيق له الكلام من الحث على الإيمان به وبما تضمنه من الكتاب وبمن جاء به ، وبالحقيقة هو نتيجة قوله تعالى : (لتبعثن ثم لتنبؤن) قدم على معموله للاهتمام فجرى مجرى الاعتراض ، وقوله سبحانه : (والله بما تعملون خبير) اعتراض فى اعتراض لأنه من تتمة الحث على الايمان كما تقول : اعمل إنى غير غافل عنك ، وقال الحوفى : ظرف ـ لخبير ـ وهو عند غير واحد من الأجلة بمعنى مجازيكم فيتضمن الوعد والوعيد ☼

وجعله الزمخشرى بمعنى معاقبكم ، ثم جوز هذا الوجه ، وتعقب بأنه يرد عليه أنه ليس لمجرد الوعيد بل للحث كيف لا والوعيد قد تم بقوله تعالى : (لتنبؤن بما عملتم) فلم يحسن جعله بمعنى معاقبكم فتدبر ، وجوز كونه منصوبا باضمار اذكر مقدراً ، وتعقب بأنه وإن كان حسناً إلا أنه حذف لاقرينة ظاهرة عليه ، وجوز كونه ظرفا لمحذوف بقرينة السياق أى يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال يوم يجمعكم ، وتعقب بأن فيه ارتكاب حذف لا يحتاج اليه ، فالأرجح الوجه الاول ، وقرئ (يجمعكم) بسكون العين ، وقد يسكن الفعل المضارع المرفوع مع ضمير جمع المخاطبين المنصوب ، وروى إشمامها الضم ، وقرأ سلام . ويعقوب . وزيد بن على . والشعبى ـ نجمعكم ـ بالنون ﴿ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، وقيل : الملائكة عليهم السلام والثقلان ، وقيل : غير ذلك ، والاول أظهر ، واللام قيل : للتعليل ، وفى الكلام مضاف مقدر أى لأجل ما فى يوم الجمع من الحساب ، وقيل : بمعنى فى فلا تقدير ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس . ومجاهد . وقتادة أنهم قالوا : يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة ، وإلى هذا ذهب الواحدى ☼

وقال غير واحد : أى يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس ، فى الصحيح «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وفيه تهكم بالاشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء بنزولهم فى منازلهم من النار ، أو جعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة فالتفاعل على هذا

القول على ظاهره وهو حسن إلا أن التغابن فيه تغابن السعداء والأشقياء على التقابل، والأحسن الاطلاق، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت فى الصحاح، واختار ذلك محي السنة حيث قال: التغابن تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون من غبن فى أهله ومنازله فى الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الايمان وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الاحسان، قال الطيبي: وعلى هذا الراغب حيث قال: الغبن أن يبخس صاحبك فى معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء فان كان ذلك فى مال يقال: غبن فلان بضم الغين وكسر الباء، وإن كان فى رأى يقال: غبن بفتح الغين وكسر الباء، و(يوم التغابن) يوم القيامة لظهور الغبن فى المبايعة المشار اليها بقوله تعالى: (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وقوله سبحانه: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) وقوله عز وجل: (الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) فعلم أنهم قد غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعا انتهى، والجملة مبتدأ وخبر، والتعريف للجنس، وفيها دلالة على استعظام ذلك اليوم وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وإن جلت وعظمت *

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أى عملا صالحا ﴿ يُكَفِّرْ ﴾ أى الله تعالى ﴿ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أى مقدرين الخلود فيها، والجمع باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد باعتبار لفظه، وقرأ الاعرج. وشيبة. وأبو جعفر. وطلحة. ونافع. وابن عامر. والمفضل عن عاصم. وزيد بن على. والحسن بخلاف عنه - نكفر. وندخله - بنون العظمة فيهما ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من تكفير السيآت وإدخال الجنات ﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩ ﴾ الذى لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات *

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٠ ﴾ أى النار، وكأن هذه الآية - والتى قبلها لاحتوائهما على منازل السعداء والأشقياء - بيان للتغابن على تفسيره بتغابن الفريقين على التقابل ولما فيه من التفصيل نزل منزلة المغاير فعطف بالواو وكذا على الاطلاق لكنه عليه بيان فى الجملة *

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أى ما أصاب أحداً مصيبة على أن المفعول محذوف، و(من) زائدة، و(مصيبة) فاعل، وعدم إلحاق التاء فى مثل ذلك فصيح لكن الالحاق أكثر كقوله تعالى: (ما تسبق من أمة أجلها) (وما تأتيهم من آية) والمراد - بالمصيبة - الرزية وما يسوء العبد فى نفس. أو مال. أو ولد. أو قول. أو فعل أى ما أصاب أحداً من رزايا الدنيا أى رزية كانت ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى بإرادته سبحانه وتمكينه عز وجل كأن الرزية بذاتها متوجهة إلى العبد متوقفة على إرادته تعالى وتمكينه جل وعلا، وجوز أن يراد - بالمصيبة - الحادثة من شر أو خير، وقد نصوا على أنها تستعمل فيما يصيب العبد من الخير وفيما يصيبه من الشر لكن قيل: إنها فى الأول من الصوب أى المطر، وفى الثانى من إصابة السهم، والأول هو الظاهر، وإن كان الحكم بالتوقف على الاذن [illegible]

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ عند إصابتها للصبر والاسترجاع على ماقيل، وعن علقمة للعلم بأنها من عند الله تعالى فيسلم لامر الله تعالى ويرضى بها، وعن ابن مسعود قريب منه، وقال ابن عباس: (يهد قلبه) لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقيل: (يهد قلبه) أى يلطف به ويشرحه لازدياد

الخير والطاعة ، وقرأ ابن جبير . وطلحة . وابن هرمز . والازرق عن حمزة - نهد - بنون العظمة *
وقرأ السلمى . والضحاك . وأبو جعفر (يهد) بالياء مبنيا للمفعول (قلبه) بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرئ كذلك لكن بنصب (قلبه) ، وخرج على أن نائب الفاعل ضمير (من) و (قلبه) منصوب بنزع الخافض أى يهد فى قلبه ، أو يهد إلى قلبه على معنى أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه ، والمؤمن واجد له مهتد اليه كقوله تعالى: (لمن كان له قلب) فالكلام من الحذف والإيصال نحو (اهدنا الصراط المستقيم) ، وفيه جعل القلب بمنزلة المقصد فمن ضل فقد منع منه ومن وصل فقد هدى اليه، وجوز أن يكون نصبه على التمييز بناءاً على أنه يجوز تعريفه *
وقرأ عكرمة . وعمرو بن دينار . ومالك بن دينار - يهدأ - بهمزة ساكنة (قلبه) بالرفع أى يطمئن قلبه ويسكن بالايمان ولا يكون فيه قلق واضطراب ، وقرأ عمرو بن قايد - يهدا - بألف بدلا من الهمزة الساكنة ، وعكرمة . ومالك بن دينار أيضا (يهد) بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة ، وإبدال الهمزة فى مثل ذلك ليس بقياس على ماقال أبو حيان ، وأجاز ذلك بعضهم قياساً ، وبنى عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قول زهير بن أبى سلمى :

جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً وأن (لا يبد) بالظلم يظلم

أصله يبدأ فأبدلت الهمزة ألفاً ثم حذفت للجازم تشبيهاً بألف - يخشى - إذا دخل عليه الجازم ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التى من جملتها القلوب وأحوالها ﴿ عَلِيمٌ ١١ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن ويهدى قلبه عند إصابة المصيبة ؛ فالجملة متعلقة بقوله تعالى : (ومن يؤمن) الخ ، وجوز أن تكون متعلقة بقوله سبحانه : (ما أصاب) الخ على أنها تذييل له للتقرير والتأكيد ، وذكر الطيبى أن فى كلام الكشاف رمزاً إلى أن فى الآية حذفا أى فمن لم يؤمن لم يلطف به أو لم يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وبنى عليه أن المصيبة تشمل الكفر والمعاصى أيضاً لورودها عقيب جزاء المؤمن والكافر وإردافها بالأمر الآتى ، وأى مصيبة أعظم منهما ؟ وهو كما أشار اليه يدفع فى نحر المعتزلة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الاطاعتين فى الكيفية ، وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى :
﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن إطاعة الرسول ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٢ ﴾ تعليل للجواب المحذوف أقيم مقامه أى فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه ، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة فى مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والاشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته صلى الله تعالى عليه وسلم محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه ، والحصر فى الكلام إضافى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الكلام فيها كالكلام فى كلمة التوحيد ، وقد مر وحلا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٣ ﴾ وإظهار الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة التوكل . أو الأمر به فان الألوهية مقتضية للتبتل اليه تعالى بالكلية ، وقطع التعلق بالمرة عما سواه من البرية ، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل لأن الايمان بأن الكل منه تعالى يقتضى التوكل ، ومن هنا قيل : ليس فى الآيات لمن تأمل فى الحث على التوكل أعظم

من هذه الآية لا يمانها إلى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن ، وهى على ماقال الطيبى : كالخاتمة والفذلكة لما تقدم ، وكالمخاص إلى مشرع آخر *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ أى إن بعضهم كذلك فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها ، ومن أفسدت عقله باطعام بعض المفسدات للعقل ؛ ومن كسرت قارورة عرضه ، ومن مزقت كيس ماله ـ ومن ، ومن ، ومن ـ وكذا من الأولاد من فعل نحو ذلك ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ أى كونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ، والضمير للعدو فانه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى : (فانهم عدو لى) فالمأمور به الحذر عن الكل ، أو للأزواج ، والأولاد جميعاً ، فالمأمور به إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو ، وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو ﴿ وَإِن تَعْفُواْ ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ تعرضوا بترك التثريب والتعيير ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ تستروها باخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾ قائم مقام الجواب ، والمراد يعاملكم بمثل ماعملتم ، ويتفضل عليكم فانه عز وجل (غفور رحيم) ولما كان التكليف ههنا شاقاً لأن الأذى الصادر ممن أحسنت اليه أشد نكاية وأبعث على الانتقام ناسب التأكيد فى قوله سبحانه : (وإن تعفو) الخ ، وقال غير واحد : إن عداوتهم من حيث أنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم فى آخرتهم ، وقد يحملونهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم كما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك » *

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا فى عيش رغد فى حياته وبعد مماته فيرتكب المحظورات لتحصيل مايكون سببا لذلك وإن لم يطلبوه منه فيهلك ، وسبب النزول أوفق بهذا القول *

أخرج الترمذى . والحاكم وصححاه . وابن جرير . وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الخ فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى الآية ؛ وفى رواية أخرى عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله تعالى بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن فجمع الله عز وجل بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الآية *

وقيل : إنهم قالوا لهم لئن جمعنا الله تعالى فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فنزلت ، وعن عطاء بن أبى رباح أن عوف بن مالك الأشجعى أراد الغزو مع النبى ﷺ فاجتمع أهله وأولاده فثبطوه وشكوا اليه فراقه فرق ولم يغز ، ثم إنه ندم فهم بمعاقبتهم فنزلت ، واستدل بها على أنه لا ينبغى للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا جنوا معه جناية وأن لا يدعو عليهم ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى بلاء

ومحنة لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الاثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك ، وفى الحديث «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته» ، وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات *

وأخرج الإمام أحمد . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن ماجه . والحاكم وصححه عن بريدة قال : «كان النبى ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما» ، وفى رواية ابن مردويه عن عبد الله بن عمر «أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج حسين بن على على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام فوطىء فى ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن المنبر فلما رآه الناس سعوا إلى حسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع فى يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة ، والذى نفسى بيده مادريت (١) أنى نزلت عن منبرى» *

وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما قال فى الكشف : الفتنة على هذا الميل إلى الأموال والاولاد دون العقوبة والإثم ، وقدمت الاموال قيل : لانها أعظم فتنة (كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) ، وأخرج أحمد . والطبرانى . والحاكم . والترمذى وصححه عن كعب بن عياض سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : «إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال» *

وأخرج نحوه ابن مردويه عن عبد الله بن أوفى مرفوعا ، وكأنه لغلبة الفتنة فى الاموال والاولاد لم تذكر من التبعيضية كما ذكرت فيما تقدم ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥ ﴾ لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والاولاد والسعى فى مصالحهم على وجه يخل بذلك ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى ابذلوا فى تقواه عز وجل جهدكم وطاقتكم كما أخرجه عبد بن حميد . وابن المنذر عن الربيع بن أنس ، وحكى عن أبى العالية *

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (اتقوا الله حق تقاته) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسخت الآية الأولى ، وجاء عن قتادة نحو منه ، وعن مجاهد المراد أن يطاع سبحانه فلا يعصى ، والكثير على أن هذا هو المراد فى الآية التى ذكرناها ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ مواعظه تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ أوامره عز وجل ونواهيه سبحانه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ ﴾ مما رزقكم فى الوجوه التى أمركم بالانفاق فيها خالصا لوجهه جل شأنه كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ وذكر ذلك تخصيص بعد تعميم ، ونصب (خيراً) عند سيبويه على أنه مفعول به لفعل محذوف أى وأتوا خيراً لأنفسكم أى افعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر

(١) ليت شعرى لو رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حال الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام فى واقعة كربلا ماذا كان يصنع فلعنة الله تعالى وملائكته ورسله والناس أجمعين على من أمر بما كان ومن ألجم وأسرج ، أو رضى أو كثر سواداً اه منه *

وبيان لكون الأمور خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد ، وفيه شمة من التجريد ، وعند أبى عبيد على أنه خبر ليكن مقدراً جوابا للامر أى يكن خيراً ، وعند الفراء . والكسائى على أنه نعت لمصدر محذوف أى إنفاقا خيراً ، وقيل : هو نصب ـ بأنفقوا ـ والخير المال ، وفيه بعد من حيث المعنى ، وقال بعض الكوفيين : هو نصب على الحال وهو بعيد فى المعنى والاعراب ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه ﴾ وهو البخل مع الحرص * ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦ ﴾ الفائزون بكل مرام ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ تصرفوا المال إلى المصارف التى عينها عز وجل ، وفى الكلام استعارة تمثيلية ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقرونا بالاخلاص وطيب النفس ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ يجعل لكم جل شأنه بالواحد عشراً إلى سبعمائة وأكثر ، وقرىء ـ يضعفه ـ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ببركة الانفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿ حَلِيمٌ ١٧ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ لا يخفى عليه سبحانه شئ ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨ ﴾ المبالغ فى القدرة والحكمة ، وفى الآية من الترغيب بالانفاق ما فيها لكن اختلف فى المراد به فقيل : الانفاق المفروض يعنى الزكاة المفروضة وقد صرح به ، وقيل : الانفاق المندوب ، وقيل : ما يعم الكل ، والله تعالى أعلم *

سورة التَّغَابُن

مَدنِيَّةٌ في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مَكِّيّة. وقال الكلبيّ: هي مكية ومدنية. وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن «سورة التغابن» نزلت بمكة؛ إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعيّ، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ إلى آخر السورة. وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة «سورة التغابن».

---

(١) راجع ٧/ ٣٣٤. (٢) ما بين المربعين ساقط من ز، ب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

تقدّم في غير موضع.

[٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ويعيدهم في يوم القيامة مؤمناً وكافراً. وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ قال: خَطَبَنا النبي ﷺ عَشِيّةً فذكر شيئاً مما يكون فقال: «يولد الناس على طبقات شتّى. يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً. ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً. ويولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً. ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً». وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ : «خلق الله فرعون في بطن أُمه كافراً وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمّه مؤمناً». وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». خرّجه البخاري والترمذي وليس فيه ذكر الباع. وفي صحيح مُسْلم عن سهل بن سعد السّاعِدِي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يَبْدُو للناس وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة». قال علماؤنا: والمعنى تعلّق العلم الأزلي بكل معلوم؛ فيجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك

الكفر. وقيل في الكلام محذوف: فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق؛ فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه؛ قاله الحسن. وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود ذكر الطرفين. وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا. قالوا: وتمام الكلام ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾. ثم وصفهم فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[1] الآية. قالوا: فالله خلقهم، والمَشْيُ فعلهم. واختاره الحسين بن الفضل، قال: لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. واحتجّوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفِطرة فأبَوَاه يهوّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه» الحديث. وقد مضى في «الروم» مستوفى[2]. قال الضحاك: فمنكم كافر في السِّر مؤمن في العلانية كالمنافق، ومنكم مؤمن في السِّر كافر في العلانية كعَمّار وذَوِيه. وقال عطاء بن أبي رَبَاح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب؛ يعني في شأن الأنواء. وقال الزجاج ـ وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة ـ: إن الله خلق الكافر، وكُفْرُه فِعْلٌ له وكسب؛ مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن، وإيمانُهُ فعلٌ له وكسب؛ مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعَلِمه منه. ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذي قدّر عليه وعلمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ، ووجود خلاف المعلوم جَهْلٌ، ولا يَلِيقان بالله تعالى. وفي هذا سلامة من الجبر والقدر؛ كما قال الشاعر:

يا ناظراً في الدِّين ما الأمْرُ لا قَــدْرٌ صــحّ ولا جَبْــرُ

وقال سِيلان: قَدِم أعرابيّ البصرة فقيل له: ما تقول في القدر؟ فقال: أمرٌ تغالت فيه الظنون، واختلف فيه المختلفون؛ فالواجب أن نَرُدّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه.

---

(١) راجع ١٢/ ٢٩٠.

(٢) راجع ١٤/ ٢٤.

[٣] ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تقدّم[١] في غير موضع؛ أي خلقها حقًّا يقيناً لا ريب فيه. وقيل: الباء بمعنى اللام؛ أي خلقها للحق؛ وهو أن يَجْزِيَ الذين أساءوا بما عمِلوا ويجزي الذين أحسنوا بالحُسْنَى. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام، خلقه بيده كرامةً له؛ قاله مقاتل. الثاني - جميع الخلائق. وقد مضى معنى التصوير، وأنه التخطيط والتشكيل[٢]. فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورةً؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّوَر. ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٣] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع؛ فيجازِي كلاًّ بعمله.

[٤] ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾.

تقدّم في غير موضع. فهو عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

[٥] ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾.

الخطاب لقريش؛ أي ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية. ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي عوقبوا. ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي موجع. وقد تقدّم[٤].

---

(١) راجع ٦/ ٣٨٤ و ٧/ ١٩.
(٢) راجع ص ٤٨ من هذا الجزء.
(٣) راجع ٢٠/ ١١٣.
(٤) راجع ١/ ١٩٨.

[٦] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالدلائل الواضحة. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر. وارتفع «أَبَشَرٌ» على الابتداء. وقيل: بإضمار فعل، والجمع على معنى بشر؛ ولهذا قال: «يَهْدُونَنَا» ولم يقل يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسماً للجنس؛ وواحده إنسان لا واحد له من لفظه. وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد؛ نحو قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي بهذا القول؛ إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده. وقيل: كفروا بالرسل وتولَوا عن البرهان، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي بسلطانه عن طاعة عباده؛ قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية.

[٧] ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ أي ظنُّوا. والزَّعْمُ هو القول بالظن. وقال شُريح: لكل شيء كُنْية وكُنْيَةُ الكذب زعموا. قيل: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِيّ مع خَبّاب؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر سورة «مريم»[١]، ثم عَمّت كل كافر. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي لتخرجن من قبوركم أحياء. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ لتخبرن. ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي بأعمالكم. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

[٨] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(١) راجع ١١/١٤٥.

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة. ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وهو القرآن، وهو نور يُهْتَدَى به من ظُلمة الضلال. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

[٩] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ العامل في «يَوْم» «لَتُنَبَّؤُنَّ» أو «خَبِيرٌ» لما فيه من معنى الوعيد؛ كأنه قال: والله يعاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار اذكر. والغَبْنُ: النقص. يقال: غَبَنَه غَبْناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته. وقراءة العامة «يَجْمَعُكُمْ» بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأخبر. ولِذِكر اسم الله أوّلاً. وقرأ نصر وابن أبي إسحاق والجَحْدَرِيّ ويعقوب وسلام «نجمعكم» بالنون؛ اعتباراً بقوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾. ويوم الجمع: يوم يجمع الله الأوّلين والآخرين الإنس والجن وأهل السماء وأهل الأرض. وقيل: هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبيّ وأمّته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي يوم القيامة. قال:

وما أرتجي بالعيش في دار فرقة ألاَ إنما الراحات يوم التغابن

وسمّي يوم القيامة يوم التَّغابُن؛ لأنه غَبَن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار. أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة؛ فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيّد بالرديء والنعيم بالعذاب. يقال: غَبَنْت فلاناً إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغَلَبة لك. وكذا أهل الجنة وأهل النار؛ على ما يأتي بيانه. ويقال: غَبَنت

الثوب وخبنته إذا طال عن مقدارك فخِطت منه شيئاً؛ فهو نقصان أيضاً. والْمَغَابِن: ما انثنى من الخِلَق نحو الإبطين والفخذين. قال المفسرون: فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة. ويظهر يومئذٍ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام. قال الزجاج: ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة مَن كان دون منزلته.

الثانية ـ فإن قيل: فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغَبْن فيها. قيل له: هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[1]. ولما ذكر أن الكفار اشترَوُا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا، ذكر أيضاً أنهم غُبِنوا؛ وذلك أن أهل الجنة اشتَرُوا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة. وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً. وقد فرّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للنار. ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار. فقد يسبق الخِذلان على العبد ـ كما بيناه في هذه السورة وغيرها ـ فيكون من أهل النار، فيحصل الموفّق على منزل المخذول ومنزل الموفق في النار للمخذول؛ فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن. والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن. وذلك كله مجموع من نشر الآثار وقد جاءت مفرّقة في هذا الكتاب. وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] والله أعلم. وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعدُ؛ ولكنه أراد التغابن الذي لا جبران لنهايته. وقال الحسن وقتادة: بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف: رجل علم عِلماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل به فشَقِي به، وعَمِل به من تعلمه منه فَنَجا به. ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشحّ عليه، وفرّط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيراً، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربّه. ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربّه فسعد، وعمل السيّد بمعصية ربّه فشقي. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما قُولاَ فما أنتما بقائلين فيقول الرجل يا ربّ أوجبت نفقتها عليّ فتعسّفتُها من حلال وحرام وهؤلاء الخصوم

---

(١) راجع ١/٢١٠. (٢) راجع ١٢/١٠٨.

يطلبون ذلك ولم يبق لي ما أوفي به فتقول المرأة يا ربِّ وما عسى أن أقول اكتسبه حراماً وأكلته حلالاً وعصاك في مَرْضاتي ولم أرض له بذلك فبُعْداً له وسُحْقاً فيقول الله تعالى قد صدقتِ فيؤمر به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة وتقول له غَبَنَّاك غَبَنَّاك سعدنا بما شقيت أنت به» فذلك يوم التغابن.

الثالثة ـ قال ابن العربيّ: استدل علماؤنا بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوۡمُ التَّغَابُنِ﴾ على أنه لا يجوز الغَبْن في المعاملة الدُّنْيوية؛ لأن الله تعالى خصّص التغابن بيوم القيامة فقال: «ذَلِكَ يَوۡمُ التَّغَابُنِ» وهذا الاختصاص يُفيد أنه لا غَبْن في الدنيا؛ فكل من اطلع على غَبْن في مَبيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث. واختاره البغداديون واحتجوا عليه[1] بوجوه: منها قوله ﷺ لحَبّان بن مُنْقِذ: «إذا بايعت فقُلْ لا خِلاَبة[2] ولك الخيارُ ثلاثاً». وهذا فيه نظر طويل بيّناه في مسائل الخلاف. نُكْتَتُه أن الغَبْن في الدنيا ممنوع بإجماع في حكم الدين؛ إذ هو من باب الخداع المحرَّم شرعاً في كلّ ملّة، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد، فمضى في البيوع[3]؛ إذ لو حكمنا بردّه ما نفذ بيع أبداً؛ لأنه لا يخلو منه، حتى إذا كان كثيرا أمكن الاحتراز منه فوجب الردّ به. والفرق بين القليل والكثير أصل في الشريعة معلوم، فقدّر علماؤنا الثلث لهذا الحدّ؛ إذ رأوه في الوصية وغيرها. ويكون معنى الآية على هذا: ذلِك يوم التغابن الجائز مطلقاً من غير تفصيل. أو ذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك أبداً؛ لأن تغابن الدنيا يستدرك بوجهين: إما بردٍّ في بعض الأحوال، وإما بربح في بيع آخر وسِلْعَة أخرى. فأما مَنْ خَسِر الجنة فلا درك له أبداً. وقد قال بعض علماء الصوفية: إن الله كتب الغبن على الخلق أجمعين، فلايلقى أحد ربّه إلا مغبوناً؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب. وفي الأثر قال النبي ﷺ: «لا يلقى الله أحدٌ إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحسن، وإن كان محسناً إن لم يزدد».

---

(١) في ابن العربي «عليها».
(٢) الخلابة: الخديعة.
(٣) في ابن العربي: «في الشرع».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما، والباقون بالياء.

[١٠] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَآيَاتِنَا﴾ يعني القرآن ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لما ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكافرين؛ كما تقدم في غير موضع.

[١١] ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ما أصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته وقضائه. وقال الفرّاء: يريد إلا بأمر الله. وقيل: إلا بعلم الله. وقيل: سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا؛ فبيّن الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، يقتضي هَمًّا أو يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً فبعلم الله وقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أي يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله. ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر والرضا. وقيل: يُثَبِّته على الإيمان. وقال أبو عثمان الجيزي: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السُّنة. قيل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ عند المصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الكَلْبيّ: هو إذا ٱبْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أُنعِم عليه شَكَر، وإذا ظُلم غَفر. وقيل: يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب في الجنة. وقراءة العامة «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أوّلاً. وقرأ السُّلَمِيّ وقتادة «يُهْدَ قَلْبُه» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسمّ فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم «قَلْبَه» بالنصب. وقرأ عِكرمة «يَهْدَأ قلبُه» بهمزة ساكنة ورفع الباء، أي يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دِينار، إلا أنه ليّن الهمزة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليم مَن انقاد وَسلَّم لأمره، ولا كراهة من كرهه.

[١٢] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي هوّنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله، واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول في العمل بسُنّته؛ فإن توليتم عن الطاعة فليس على الرسول إلا التبليغ، ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي لا معبود سواه، ولا خالق غيره؛ فعليه توكّلوا.

[١٤] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عَوْف بن مالك الأشْجَعِيّ؛ شكا إلى النبي ﷺ جَفاء أهلِه وولدِه؛ فنزلت. ذكره النحاس. وحكاه الطَّبَري عن عطاء بن يَسار قال: نزلت سورة «التغابن» كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ نزلت في عَوْف بن مالك الأشْجَعيّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغَزْو بَكَوْا إليه ورقّقُوه فقالوا: إلى مَن تدعنا؟ فَيرِقّ فيُقيم؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا

إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ الآية كلها بالمدينة في عَوْف بن مالك الأشجعي . وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة . وروى الترمذي عن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ـ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ، فلما أتَوُا النبي ﷺ رأوُا الناس قد فَقُهُوا في الدِّين هَمُّوا أن يعاقبوهم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية . هذا حديث حسن صحيح .

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا يبيّن وجه العداوة؛ فإن العدوّ لم يكن عَدوًّا لذاته وإنما كان عدوًّا بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فِعْل العدُوّ كان عَدُوًّا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. وفي صحيح البخارِيّ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان قَعَد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتَذَر دِينَك ودِين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتُنكح نساؤك ويُقسم مالك فخالفه فجاهد فقتِل فحقّ على الله أن يدخله الجنة». وقعود الشيطان يكون بوجهين : **أحدهما** ـ يكون بالوسوسة . **والثاني** ـ بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[1] . وفي حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد؛ قال النبي ﷺ : « تَعِس عبد الدينار تَعِس عَبْدُ الدِّرْهم تَعِس[2] عبد الخَمِيصَة تَعِس عبد القَطيفة تَعِس وانتكس

(١) راجع ١٥/٣٥٤.

(٢) قوله: «تعس» هلك. و «الخميصة»: كساء أسود مربع له أعلام وخطوط. و «القطيفة»: دثار له أهداب. «وانتكس» عاوده المرض كما بدأ به. أو انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة. و «شيك»: أصابته شوكة. و «فلا انتقش» أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش.

وإذا شِيك فلا انتقش». ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همّة أخسّ من همّة ترتفع بثوب جديد.

الثالثة ـ كما أن الرجل يكون له ولده وزَوْجُه عدُوًا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًا بهذا المعنى بعينه. وعموم قوله: «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. والله أعلم.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ معناه على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدِّين. وضرر البدن يتعلّق بالدنيا، وضرر الدِّين يتعلق بالآخرة. فحذَّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روى الطَّبَري عن عِكْرمة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: فإذا أسلم وَفَقُهَ قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهوْن عن هذا الأمر، فلأفعلن ولأفعلن؛ قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم. والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم[1] الحكم.

[١٥] ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرّم ومنع حق الله تعالى؛ فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: «يُؤْتَى برجل يوم القيامة

(١) لفظة عموم ساقطة من ح. س.

فيقال أَكَلَ عِيَالُهُ حسناتِهِ». وعن بعض السلف: العيال سُوس الطاعات. وقال القُتَيْبِيّ: «فِتْنَةٌ» أي إغرام، يقال: فُتِن الرجل بالمرأة أي شُغف بها. وقيل «فِتْنَةٌ» مِحْنة. ومنه قول الشاعر:

لقد فتن الناس في دينهم ... وخَلّى ٱبن عَفّان شرًّا طويلاً

وقال ابن مسعود: لا يقولن أحدكم اللَّهُمّ اعْصِمْني من الفتنة؛ فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ ولكن ليقل: اللَّهُمّ إني أعوذ بك من مُضِلّات الفتن. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: أدخل «من» للتبعيض؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر «مِن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ يخطب؛ فجاء الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران؛ فنزل ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله عزّ وجلّ إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيّيْن يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ثم أخذ في خطبته. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين. وفي الصحيحين ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك فيقول ألاَ أعطيكم أفضلَ من ذلك قالوا يا ربّ وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك فيقول أُحِلّ عليكم رِضواني فلا أسْخَط عليكم بعده أبداً». وقد تقدم. ولا شك في أن الرِّضَا غاية الآمال. وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك:

امتحن الله بـه خلقـهُ ... فـالنـار والجنـة فـي قبضتـه
فهجـره أعظـم مـن نـارهِ ... وَوَصْلُـه أطْيَـبُ مـن جَنَّتـه

[١٦] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾.

[١٧] ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنفُسِكُمْ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تقَاتِهِ﴾[١] منهم قتادة والربيع بن أنس والسُّدّي وابن زيد. ذكر الطَّبَري: وحدّثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: جاء أمر شديد، قالوا: ومَن يعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتدّ ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَق تُقَاتِهِ﴾ إنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لِلَّهِ حَقّ جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لِلَّهِ بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقد تقدم[١].

الثانية - فإن قيل: فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله في سورة «التغابن»: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حقّ تُقاته، والأمر باتقائه ما استطعنا. والأمر باتقائه حقّ تُقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط، والأمر باتقائه ما استطعنا أمرٌ باتقائه موصولاً بشرط. قيل له: قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بمعزل مما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وإنما عنى بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جُعل فتنة لكم من أموالكم

(١) راجع ٤/١٥٧.

وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدّكم عن الواجب لِلَّهِ عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام؛ فتتركوا الهجرة ما استطعتم؛ بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين. وذلك أن الله جل ثناؤه قد، كان عَذَر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ـ إلى قوله ـ: فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾[1]. فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حِيلةً ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك؛ فكذلك معنى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخّروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك؛ حسب ما تقدم. وهذا كله اختيار الطَّبَري. وقيل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فيما تطوّع به من نافلة أو صدقة؛ فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اشتدّ على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم وتقرّحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الأولى؛ قاله ابن جُبَير. قال الماورديّ: ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها؛ لأنه لا يستطيع اتقاءها.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنْهَوْن عنه. وقال مقاتل: «اسْمَعُوا» أي أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله؛ وهو الأصل في السماع. «وَأَطِيعُوا» لرسوله فيما أمركم أو نهاكم. وقال قتادة: عليهما بويع النبي ﷺ على السمع والطاعة. وقيل: «وَاسْمَعُوا» أي اقبلوا ما تسمعون؛ وعبّر عنه بالسماع لأنه فائدته.

---

(١) راجع ٥/ ٣٥٤.

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقَصَرها على عبد الملك بن مروان فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ هي لعبد الملك بن مروان أمين الله وخليفته، ليس فيها مَثْنَوِيّة، واللّهِ لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحلّ لي دمه. وكذب في تأويلها! بلى هي للنبي ﷺ أوّلاً ثم لأولي الأمر من بعده. دليلُه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(١)].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ قيل: هو الزكاة؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفل. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه. قال ابن العربي: وإنما أوقع قائلَ هذا قولُه: «لأَنْفُسِكُمْ» وخفِيَ عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[(٢)]. وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه. والصحيح أنها عامة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على عيالك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك» قال: عندي آخر؟ قال: «تصدّق به» فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصل في الشرع.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ﴾ «خَيْراً» نصب بفعل مضمر عند سيبويه؛ دلّ عليه «وَأَنْفِقُوا». كأنه قال: إيتُوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدموا خيراً لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والفَرّاء نعت لمصدر محذوف؛ أي أنفقوا إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة خبر كان مضمرة؛ أي يكن خيراً لكم. ومن جعل الخير المال فهو منصوب بـ «ـأنفِقوا».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم الكلام فيه[(٣)]. وكذا ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في «البقرة»[(٤)] وسورة

---

(١) راجع ٥/٢٥٨.
(٢) راجع ١٠/٢٢٧.
(٣) راجع ص ٢٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع ٣/٢٣٧ و ١٧/٢٤٢.

«الحديد». ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ تقدم معنى الشكر في «البقرة»[1]. والحليم: الذي لا يَعْجَل.

[١٨] ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ما غاب وحضر. وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب القاهر. فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[2]. أي من الله القاهر المحكم خالق الأشياء. وقال الخطّابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عَزّ يَعِزّ (بكسر العين) فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء وأنه لا مِثل له. والله أعلم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه. وقال ابن الأنباري: «الْحَكِيمُ» هو المحكم لخلق الأشياء، صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[3] معناه المُحْكَم، فصُرف عن مُفْعَل إلى فَعِيل. والله أعلم.